# اللغة اللاّهوتيّة والحق

*"إن الله بعدما كلّم الآباء قديماً بالأنبياء مرّات كثيرة بوجوه كثيرة،*
*كلّمنا في آخر الأيّام هذه بابنه" (عب ١، ١-٢)*

**١.** إن النقاش حول معايير جدوى اللغة اللاّهوتيّة وإمكانيّة التحقّق منها فضلاً عن مدى تماسك هذه اللغة، يعود إلى الثلاثينيّات من القرن العشرين، حين اتخذ أبعاداً فلسفيّة–لغويّة ولاهوتيّة هامّة، لا سيّما في الأوساط الأنجلوسكسونيّة. غير أنّ هدف هذه المقالة ليس رسم المعالم الأساسيّة لهذا النقاش أو تلخيص الحجج التي طوّرها اللاّهوت للإجابة على تحدّيات الفلسفة الألسنيّة[١].

**١–١.** تهدف هذه المقالة إلى تفحّص العلاقة التي تربط اللغة اللاّهوتيّة، أي لغة الإيمان، بالحقيقة المعلنة. فإلى أيّ حدّ بإمكان هذه اللغة، التي هي في طبيعتها ظرفيّة ومشروطة بثقافة معيّنة والتي تبقى محدودة في تعبيرها عن الحقائق المطلقة، أن تدّعي الصفة الشموليّة وحمل الحقيقة، بما أنّ مهمّتها الأساسيّة إيصالُ رسالة خلاص موجّهة إلى الإنسانيّة بكاملها في كلّ تعدّدها العرقيّ والثقافيّ؟ فأين هي إذاً حدود تجذّرها الثقافيّ وما هي المعايير التي تحدّد أمانتها لرسالة الإنجيل الأصليّة؟

**٢.** هذا يقودنا لا محالة إلى أن نطرح على أنفسنا السؤال نفسه الذي طرحه بيلاطس على يسوع والذي لا تنفكّ الإنسانيّة تطرحه على نفسها منذ فجر الزمن: "ما هو الحق"؟ (يو ١٨، ٣٨). كيف يمكننا أن نفهم تأكيد يسوع على أنه هو نفسه "الطريق والحق والحياة"؟ (يو ١٤، ٦). إنّ هذا التأكيد يبقى مسلّمة أساسيّة من مسلّمات اللاّهوت المسيحيّ في مجمله ويحتّم ضرورة وجود الخريستولوجيا في أساس كلِّ خطاب مسيحيّ حول الحق. فالمسيح لا يكتفي بإعلان الحق "الذي سمعه من الآب" وبالشهادة له (يو ٨، ٤٠ و٤٥)، وهو ليس فقط موضع هذا الحق وظهوره وإعلانه، بل هو أيضاً و في شكل خاص تجسُّد هذا الحق.

**١–٢.** يمكن فهم هذه المقاربة الخريستولوجي ّة للحق على نحوَين مختلفَيْن: الأوّل من حيث أنّه خريستولوجيا "فرديّة" تنظر إلى المسيح–الحق في شكل موضوعيّ في بعده التاريخيّ كفرد، والثاني

---

[١] انظر في هذا الصدد المعجم النقدي للاهوت، مقالة "اللغة اللاهوتية": Fergus Kerr, "Langage", dans J.-Y Lacoste (ss. Dir 640-644.

خريستولوجيا "شخصانيّة" يظهر فيها المسيح-الحق القائم من بين الأموات بوصفه شخص في شركة، ودائم الوجود، مُؤَوَّنٌ في كنيسته بواسطة الروح القدس. وهذا النوع من الخريستولوجيا مشروط بعمل الروح القدس ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإكليزيولوجيا[٢].

**٢-١-١.** في الحالة الأولى، ثمة مسافة، لا بل هوّة زمنيّة تفصلنا عن يسوع الفرد وعن الحق الذي أعلنه وأظهره وجسّده. هذا الحق انتقل إلينا بواسطة الكتاب المقدس والمجامع المسكونيّة، وعبر حياة آبائنا في الإيمان وأعمالهم كما من خلال التقليد الكنسيّ الحيّ. وغالباً ما نتعامل هنا مع نصوص كُتبت في لغات الحقب التاريخية المختلفة التي وُضِعَتْ خلالها وأساليبها ومفاهيمها، والتي لا بدّ من إعادة قراءتها وتفسيرها بهدف تأوينها. وتدخل هذه العملية في كثير من الأحيان في إطار البحث الأكاديميّ والعلميّ وتبقى ضروريّة ومفيدةً من أجل مقاربتنا للحق. إنّ هذا السعي إلى الحق والمعنى يستخدم طريقة النقد التاريخيّ في تحليل النصوص، فضلاً عن طرائق مختلفة من التحليل الأدبي (التحليل البلاغي، الروائي، الدلالي، وغيره.) كما أنّه يمكن أن يعتمد مقاربات مختلفة للنص (مقاربة إناثيّة، اجتماعية، سيكولوجية، أنثروبولوجية...)[٣].
لكن نعمة الروح القدس ومعونته غالباً ما تقودانا في مسيرتنا إلى ردم هذه المسافة والاقتراب قدر المستطاع من المسيح-الحق المطلق. فالروح القدس يعمل هنا كـــ "مسهّل" ومفسّر، وفي كثير من الأحيان ثمة ميل لدينا ولاسيما في أوساط الرئاسة الكنسيّة إلى حدّ الروح القدس داخل الكنيسة واستخدامه بمثابة "ختم" للحق. غير أنّ هذا السعي، حتى لو وجّهه الروح القدس، يبقى خاضعاً لذاتيّتنا.

**٢-١-٢.** في النمط الخريستولوجيّ الثاني، نجد أنّ المسيح شخص علائقيّ، في شركة، يكشفه لنا[٤] الروح القدس باستمرار. فعندما يؤكّد يسوع أنّه هو نفسه "الحق"[٥]، هذا يعني أنّ كلّ وجوده

---

[٢] انظر في هذا الصدد الفصل الذي يحمل عنوان "الحق والشركة" للأسقف يوحنا زيزيولاس في كتابه "الكائن الكنسي"، " et comunion" dans L'Etre , coll. Perspective Orthodoxe n.3, Labor et Fides, , 1981, pp. 57-110. فالنقاش هنا ليس عن "يسوع التاريخ" و"مسيح الإيمان"، بل عن "المسيح الفرد" و"المسيح الشخص القائم في شركة".

[٣] من أجل الاطلاع على موقف كاثوليكي رسمي إزاء بهذه الطرائق التفسيرية، انظر تقرير اللجنة الإنجيلية البابوية الذي يحمل عنوان "تفسير الكتاب المقدس في الكنيسة" Commission Biblique Pontificale, " ion de la Bible dans l'Eglise, Cerf, Paris 1994

[٤] هذا ينسجم مع المعنى الأصلي لكلمة "أليثيا" اليونانية (أي الحق) المشتقة من الجذر اليوناني "ليث" الذي يفيد الإخفاء وحرف الألف في بداية الكلمة يمنح كلمة "أ-ليثيا" معنى عدم الإخفاء.نحن إذاً أمام واقع مكشوف لا يمكن إلاّ أن يكون ظاهراً للعيان. إلى حدّ أنه يمكننا القول في اللغة المحكية: هذا أمر واضح جداً وبديهيّ بحيث لا يمكنه إلاّ أن يكون حقيقيّاً.

في العهد الجديد، ولا سيّما في إنجيل يوحنا، نجد هذا المفهوم اليوناني للحقيقة بوصفها كشف للواقع. لكن هذه الحقيقة ليست موجودة مسبقاً بل هي مسيح التاريخ بوصفه حقيقة. انظر في هذا الصدد مقالة ميخائيل تيوبالد "الحقيقة في اللاهوت الكتابي" Michael dans la biblique dans J.-Y. Lacoste (ss. Dir.), Disctionaaire 1998, pp. 1212-1214.

الشخصي ببعده العلائقيّ هو "الحق". وتالياً، فإنّ هذا يخصّ علاقته بجسده، الذي هو الكنيسة. فالمسيح ليس هو ذاك الفرد الذي يجب أن نتقصّى عنه ونكتشف ماذا فعل وقال في التاريخ لنتوصّل إلى الحق. والروح القدس، من هذا المنظور الخريستولوجيّ، ليس هو الذي يساعد على ردم المسافة التي تفصلنا عن يسوع–الحق، بل هو شخص الثالوث القدوس الذي يُؤَوّن المسيح مخلّصنا فيجعله حاضراً هنا والآن، في التاريخ. بهذا المعنى، لا يمكن أن تكون الخريستولوجيا إلاّ محكومة بفعل الروح القدس[٦]. إنّ إلغاء فرديّة المسيح من خلال مماهاته بجسده الروحاني، أي الكنيسة، يكتسب ملء معناه في حدث القيامة التاريخي. في الواقع، من خلال هذا الحدث المؤسّس لإيماننا دخلت الحقائق الإسخاتولوجية في التاريخ[٧].

**٣**. ما هي نتائج فهم للحقّ كهذا بوصفه شركة علائقيّة وفي تمفصله بين الخريستولوجيا والتعليم عن الروح القدس والإكليزيولوجيا على اللغة اللاّهوتيّة؟ إذا كانت هذه اللغة مدعوة إلى التعبير عن الأشياء الإيمانيّة وإلى أن تكون حاملة لرسالة خلاصٍ من أجل البشر اليوم، فلا بد أن تكون قابلة للفهم وفي متناول الجميع، وأن يجري تطويعها لواقع كلٍّ منهم وثقافته على اختلافها، وأن تكون منتبهة للتحديات والمشاكل الحقيقيّة التي يواجهونها وأن تخاطبهم في صميم وجودهم. لذلك، لا بدّ أن تكون هذه اللغة قادرة على تفسير عقائدنا بتعابير وجوديّة تعطي معنىً لحياتنا. فماذا تعني لنا حالياً العقائد الخريستولوجية الموضوعة في القرون الخمسة الأولى في صيغة تعبيريّة تحمل سمة ذلك العصر؟ هل سنستطيع مثلاً أن نفسّر عقيدة الثالوث الأقدس بحيث نلقي الضوء على مسائل معيّنة مثل الفرديّة والتعددية والوحدة في التنوع والعالمية؟ ماذا يمكن لإكليزيولوجيا تدعو إلى جامعية الكنيسة المحلية أن تقول عن مسألةٍ كالعَوْلمة؟[٨]

**٣–١**. هذه بعض الشروط الضروريّة، ولكن غير الكافية. فلكي تكون هذه اللغة حاملة لرسالة خلاص يجب أن تكون حقيقية وحاملة للحق، أي أن تعكس الواقع الذي تصبو إليه. إذا لم يكن هذا الحق، كما رأينا، إلاّ المسيح الموجود في علاقة شركة مع جسده، فهذا يعني أنّ اللغة اللاهوتيّة حقيقيّة بمقدار ما تكون لغة كنسيّة، لغة الكنيسة غير المنقسمة، إيقونة المسيح. من المنظور الشركويّ، تصبح

---

[٥] لا بد من الإشارة هنا إلى أن كلمة الحق معرّفة وهذا الأمر هام جداً في سياق أسلوب إنجيل يوحنا الأدبي: فهو لا يتحدث عن "حق" يدل على محتويات كشف إلهيّ محددّ، بل عن حقيقة الله بعينها. انظر المرجع السابق، ص ١٢١٤.

[٦] في ما يختصّ بتطوّر هذه الحجّة وأسسها اللاهوتية والآبائية وانعكاساهما على الإكليزيولوجيا أنظر يوحنا زيزيولاس "الحقيقة والشركة" et Communion" op. Cit. pp. 98-101.

[٧] انظر المرجع السابق، الحاشية ١١٥، ص ١٠١–١٠٢.

[٨] انظر المحاضرة التي ألقاها الأسقف يوحنا أسقف برغامس (زيزيولاس) في البلمند: "الكنيسة الأرثوذكسية والألف الثالث" في www.balamand.edu.lb/theology/ZizioulasLecture.htm

اللغة اللاهوتيّة لغة كنسيّة: لغة لا تسعى إلى الحقّ، بل تظهره وتعبّر عنه انطلاقاً من واقع الكنيسة المعاش.

**٣-١-١**. إذا كان المسيح-الحق محقَّقاً ومؤوَّناً باستمرار في الكنيسة بواسطة الروح القدس، ينتج من ذلك أنّ اللغة اللاهوتيّة وهي التي تعبّر عن هذا الحق يجب أن تكون هي أيضاً مؤوَّنة باستمرار في عنصرة مستمرّة. وهذا التأوين يفترض عملاً مستمرّاً يتمثّل في إعادة تفسير الأحداث التأسيسيّة والنصوص المعياريّة لإيماننا. إنّ مهمّة عمل تفسيريّ كهذا هي أن نكتشف، من خلال مختلف "طبقات" النصوص أو الأحداث التاريخيّة التي وصلت إلينا بطرق متنوّعة، النقاط الجوهريّة لبشارة الإنجيل. فتأوين الرسالة -عبر اللغة اللاهوتية أو غيرها- قد يصبح غير ذي أهمية بالنسبة إلى الكنيسة إذا تمّ حصره بالجانب الفكريّ وحتى التقنيّ من العمل التفسيري. ألا يلتقي في هذه الحال مع الخريستولوجيا في بعدها الفردي؟ لا بدّ، إذاً، أن يتمّ كلّ عمل تفسيريّ، أو كلّ إعادة تفسير وتأوين للغة اللاهوتيّة في الكنيسة، من قبل الكنيسة ومن أجل الكنيسة.

**٤**. يقودنا هذا الأمر إلى الخلاصة التالية، وهي أنّ الصيغ اللاهوتيّة والعقائدية عندما تكون في خدمة الكنيسة، حتى لو تمّ التعبير عنها بلغة مختلفة (في كل الأبعاد التي تشتمل عليها اللغة: البعد اللغوي، والثقافي، والفلسفي، وغيرها..)، وأحياناً بعبارات مختلفة، يجب ألاّ تكون ولا يمكن أن تكون مصدر انقسام. فهذه الصيغ لا يمكنها إلاّ أن تعكس المسيح-الحقّ في علاقته بجسده.

**٤-١**. في الواقع لقد كتب القديس أثناسيوس أسقف الإسكندرية، أحد أكبر آباء الكنيسة والمدافع الشرس عن الأرثوذكسية ضد الآريوسية في القرن الرابع، إلى الأنطاكيين للدفاع عن وجهة نظر بعض الأساقفة الذين كانوا يعبرون عن إيمانهم بتعابير مختلفة عن التعابير التي كان الأنطاكيون يستخدمونها، والأرجح أن هؤلاء ما كانوا معتادين عليها، ولكنها متفقة في العمق مع ما جاء في مجمع نيقية، قائلا: "... نوصيكم بألا تدينوا بتهور الذين يؤمنون بهذه الأمور، والذين يفسرون الجمل التي يستخدمونها بهذه الطريقة، وبألا ترفضوهم، بل بأن تقبلوهم لأنهم يريدون السلام"[٩]. من اللافت أن نلاحظ أهمية السلام في الكنيسة، فهو في أساس كل سعي إلى إيجاد توافق مشترك من خلال الصيغ التي تبدو مختلفة ظاهريا.

---

[٩] Tomus ad Antiochenos", Philip Schaff (ed.), Nicene and Post Nicene Fathers, vol. IV, Eerdmans, Michigan, 1953, p. 485

**٤-١-١.** بعد مضيّ خمسة عشر قرناً على الشقاق الكبير الأوّل في الكنيسة والذي حصل إثر مجمع خلقيدونية، توصلت الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الأرثوذكسية الشرقية (القبطية، الأثيوبية، السريانية، الأرمنية والسورية الشرقية) عام ١٩٩٠ في شامبيزي- جنيف إلى اتفاق مشترك أعلنت فيه التالي: "على ضوء بياننا المشترك في الخريستولوجيا، وعلى ضوء ما سبق، اتضح لنا الآن أنّ عائلتينا الكنسيتين لطالما حافظتا بإخلاص على الإيمان الخريستولوجي الأرثوذكسي الأصيل نفسه، وعلى تسلسل التقليد الرسوليّ غير المنقطع على الرغم أنهما استخدمتا تعابير خريستولوجيّة في شكل مختلف. فهذا الإيمان المشترك وهذا الإخلاص المستمر للتقليد الرسوليّ هما ما يجب أن يكون في أساس وحدتنا وشركتنا"[١٠].

ميشال نصير

[١٠] انظر اللجنة المختلطة للحوار اللاهوتي بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الأرثوذكسية الشرقية، البيان المشترك الثاني والتوصيات الموجهة إلى الكنائس، جنيف، ٢٣-٢٨ أيلول ١٩٩٠، الفقرة التاسعة في www.pharos.bu.edu/cn/articles/OrthodoxUnityDialog.txt ص ٢٩ من ٣٣. وانظر أيضاً إعلان البيان المشترك الأول في بريستول، عام ١٩٦٧، لا سيما الفقرة الرابعة، المرجع السابق ص ١٢ من ٣٣.